تفصح من صدرها للكتاب، تقسم الأدباء إلى فرق ومعسكرات، وقديم وجديد، ورفعت في الجهاد راية ...

والرافعي رجل — كان — فيه عصبية للدين، وعصبية للقديم؛ فأيقن منذ قرأ العدد الأول من السياسة الأسبوعية أن سيكون له شأن مع السياسة وكتاب السياسة في غد ...

ونال الرافعي رشاش من بعض المعارك وإنه لبعيد عن الميدان، فأحس في نفسه رغبة في الكفاح فتحفز للوثبة ...

ودسّ كلمةً إلى طه يذم أسلوبه بما يشبه المدح، ويعيب عليه التكرار وضيق الفكرة، فنشرها طه في السياسة قبل أن يستبين مغزاها وما ترمي إليه ... ثم عرف ...

وتهيأت أسباب الحرب ولم يبدأ أحدٌ بالعدوان .. وتربّص الرجلان في انتظار السبب المباشر لبدء المعركة ...

ثم أصدر الرافعي رسائل الأحزان، فسعى راجلاً إلى دار السياسة ليهدي إليها كتابه. وهناك التقى الرافعي وطه حسين وجها لوجه ... ونظر الرافعي إلى طه، واستمع طه إلى حديث الرافعي، وتصافح الخصمان قبل أن يصعدا إلى حلبة المصارعة، ونفخ الدكتور هيكل بك في صفارة الحكم، وبدأت المعركة. وكانت مشادة حادة خرج الرافعي يتحدث عنها وصمت طه

لمن يا ترى كانت الغلبة؟ الرافعي يقول: أنا ... ولكن طه لا يتكلم، والدكتور هيكل ضنين بالحديث

ومضت فترة، ثم نشر طه حسين رأيه في رسائل الأحزان في السياسة الأسبوعية، فرفع راية العداء وأعلن الحرب. ورد الرافعي يقول:

يسلّم عليك المتنبي ويقول لك:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم!

ثم مضى في رده يهزأ ويسخر ويتحدى ويتحدى، في مقال طويل تقرؤه في ص ١٠٩ — ١٢٢ من كتاب المعركة؛ وطارت الشرارة الأولى، فاندلعت ألسنة النار فما خمدت حتى أحدثت أزمة وزارية، وأنشأت جفوةً بين سعد وعدلي، وأوشكت أن تؤدي بعلي ماهر إلى المحاكمة، وهزّت دوائر البرلمان، ثم انتهت في النيابة العمومية ...

وفي الأسبوع المقبل بقية الحديث عما كان

« شبرا »

محمد سعيد العريان

أبو إسحاق الصابي

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

— ٢ —

لعل أبا إسحق الصابي أصدق مثل يضرب لمن يماري في وجوب نزول الآباء على إرادة الأبناء فيما يحبون من فروع العلوم أو يتزعون إليه من أفنان الفنون، وأن خير ما يؤخذ به المتعلم هو الرغبة الحافزة لا الرهبة القاسية، إذ لا يرتجى كثير نجاح في قسر الأبناء على علم بعينه يريده الآباء، ولا أحذهم بدراسة مخصصة لا يبغيها أولئك ويحتمها هؤلاء، فإن ذلك قاتل للملكاتهم رافع بهم إلى الاستيئاس من النجاح، أو على الأقل الأدنى نازع بهم إلى القصور في كل علم، والتقصير فيما لا يميلون إليه من الفن، وضارب بهم في مهامه لا يعرفون وجه المحجة فيها، وموقع بهم في مفاوز إن نجوا منها فبعد لأي وعناء؛ ولاسيما متى كان ذكاؤهم محدوداً ونبوغهم قاصراً. ورضي الله عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حيث يقول: « لا تقسروا أبناءكم على آدابكم، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم » وإذا كان رضوان الله عليه قد قصد بالتأديب معناه الأخص فهو على وجه العموم أولى، وبشموله كل أدب أجدى

دفعني إلى تلك التقدمة أني رجل تربية من واجبي تنبيه الأذهان إلى ترك الحرية العلمية للتلميذ ينهج فيها نهجه الذي يحبه. فلقد حاول أبو الحسن والد إبراهيم الصابي تعليمه منذ نشأته صناعة الطب وحذق الحكمة سيرا على سنن آبائه نهجا على منهج أسلافه، إذ كان جلهم رجال طب وحكمة. وبذل في سبيل ذلك غاية الجهد، وجهد لتنفيذ إربته إلى أقصى غاية، وقد وجد من ابنه سمعاً ومن إبراهيم مطيعاً، لا عن رغبة وحب، بل عن رهبة وأدب، وقسر وزجر. ولو غير أبي إسحاق لرمى بكلام أبيه عرض الأفق، ولكنه كان باراً بأبيه عالماً بواجبات الأبوة لا يعصى له أمراً وإن جاء قاسياً، ولا يخالف له رأياً وإن بدا له رأياً خاطئاً، وإن هذه النزعة فيه نزعة البر والحدب والحب والولاء ليعبر عنها شعره تعبيراً قوي الأسر صادق النزعة، فهو

ى أن الإنسان بعد فقد والديه ليس شيئاً مذكوراً ، وأنه يعيش فى الدنيا غريباً ، لأنه لايجد فؤاداً يحنو عليه ولا عيناً ترمقه ، وأنه يعيش — متى كان حى الوجدان — جنيب صفاء وأليف شقاء ، فمن هذا قوله :

أسرة المرء والداه وفيما ... بين حضنيهما الحياة تطيب
فإذا ما طواهما الموت عنه ... فهو فى الناس أجنبى غريب

ولا يختلف شأنه مع أبنائه عن شأنه مع والديه ، فإنه ليعطف عليهم عطف الأم الرءوم لا الأب الرحيم ، ويتجاوز عن جرائرهم ويجعل هفواتهم دبر أذنه ، حتى لا تقع عليهم لعنة الله ولا تحق فيهم كلمته ؛ شأن الأب الكريم ، وشيمة الرجل الحليم الحكيم . وهو إذ يتحدث عن ذلك يتحدث فى زهو ، ويقصه فى فخر معلما أولئك الآباء القساة طرائق فى التربية تسعدهم وتسعد أبناءهم ، ومتى أغنت النظرة فلا حاجة إلى الكلمة ، وفى مثل ذلك يقول:

أرضى عن ابنى إذا ما عقنى حذرا ... عليه أن يغضب الرحمن من غضبى
ولست أدرى بما استحققت من ولدى ... إقذاء عينى وقد أقررت عين أبى

واستمع إليه يرد على رسالة وردته من ابنه أبى على المحسن كان قد كتبها تسلية له فى إحدى نكباته ، وجاء فى رسالة أبى على هذان البيتان :

لا تأس للمال إن غالته غائلة ... ففى حياتك من فقد اللهى عوض
إذ أنت جوهرنا الأعلى وما جمعت ... يداك من تالد أو طارف عرض

فكتب تلك الأبيات التى أحسبها من حبات قلبه نسيجها ، ومن عبرات عينيه نظيمها ، فكل حرف شفقة وعطف ، وكل كلمة بر ورحمة . قال :

يا درة أنا من دون الردى صدف ... لها أقيها المنايا حين تعترض
قد قلت للدهر قولاً كان مصدره ... عن نية لم يشب إخلاصها مرض
دع المحسن يحيا فهو جوهرة ... جواهر الأرض طرا عندها عرض
فالنفس لى عوض عما أصيبت به ... وإن أصبت بنفسى فهو لى عوض
أتركه لى وأخاه ، ثم خذ سلبى ... ومهجتى فهما مغزاى والغرض

فلا غرو إذا مانزل ، وهذا خلقه وتلك شيمه ، على أمر أبيه كارهاً ، وأطاعه تكلفاً ، وجامله فيما كلفه إياه مصانعاً ، فتعلم الطب مخلصاً فى تعلمه ، وإن لم ينته عن التعرض لما تصبو إليه نفسه ، ويرغب فيه طبعه ، فكان يزاول فى أوقات خلوته وسويعات فراغه من كتب الحكمة — أشتات علوم اللغة والأدب وما إليهما ، فإن علم أبوه ذلك عنه نهاه وزجره ، حتى يأخذ فيما يؤهله له ، ولا يصرف وقته فيما لا غناء فيه فى نظره . وأجدر بى أن أسوق حديث أبى اسحاق عن نفسه فى هذا الوقف ، فإنه يقول : « كان [1] والدى أبو الحسن يلزمنى فى الحداثة والصبا قراءة كتب الطب والتحلى بصناعته ، وينهانى عن التعرض لغير ذلك ، ففويت فيها قوة شديدة ، وجعل لى برسم الخدمة فى «البيارستان» عشرون ديناراً فى كل شهر ، وكنت أتردد إلى جماعة من الرؤساء خلافة له ، ونيابة عنه ، وأنا مع ذلك كاره للطب ، ومائل إلى قراءة كتب الأدب ، كاللغة والشعر والنحو والرسائل والأدب ؛ وكان إذا أحس بهذا منى يعاتبنى عليه ، وينهانى عنه ، ويقول : يابنى لاتعدل عن صناعة أسلافك . فلما كان فى بعض الأيام ورد عليه كتاب من بعض وزراء خراسان يتضمن أشياء كثيرة كلفه إياها ، ومسائل فى الطب وغيره سأله عنها ، وكان الكتاب طويلا بليغاً ، قد تأنق منشئه وتغارب . فأجاب عن تلك المسائل ، وعمل جملا لما يريده ، وأنفذها على يدىّ إلى كاتب لم يكن فى ذلك العصر أبلغ منه ، وسأله إنشاء الجواب عنه . قال: فمضيت وأنشأت أنا الجواب ، وأطلته وحررته ، وجئت به إليه ، فلما قرأه قال : يابنى سبحان الله ! ما أفضل هذا الرجل وأبلغه ! فقلت له : هذا من إنشائى ، فكاد يطير فرحاً ، وضمنى إليه ، وقبلنى بين عينى ، وقال : قد أذنت لك الآن ، فامض فكن كاتباً

ومن ذلك اليوم هجر أبو إسحاق الطب إلى الأدب وقلى الحكمة ليواصل اللغة ، فكان كاتباً أريباً وشاعراً مجيداً ، جرى

(١) معجم ياقوت : الجزء الثانى ص ٤٥

اسمه فى كل مجلس ، سواء فى ذلك مجالس الأنس والنحس ، وحلق فى كل أفق لا يبالى أكان الأفق ساطعاً أم ملبداً ، وبرع فى كل فن حتى صار ملء الأسماع ومهبط الآماق ؛ ولله در واصفه إذ يقول :

أصبحت مشتاقاً حليف صبابة ... برسائل الصابى أبى إسحاقِ
صوب البلاغة والحلاوة والحجا ... ذوب البراعة سلوة العشاق
طوراً كما رق النسيم وتارة ... يحكى لنا الأطواق فى الأعناق
لا يبلغ البلغاء شأو مبرز ... كتبت بدائعه على الأحداق

وإن أدبه — كما يقول معاصروه — لسلوة الحزين ، وشفاء الكليم ، وأنيس المسافر والمقيم ، وسمير الصديق والحميم ، مما يدل على أنه كان أمة عصره ونابغة دهره ، يشهد له بذلك البعيد والقريب ، والعدو والحبيب ، ولن أبلغ فى وصف أدبه الغاية كما بلغ لداته ، فهذا أحدهم يقول :

يا بؤس من يعنى بدمع ساجم ... يهمى على حجب الفؤاد الواجم
لو لا تعـــلله بكأس مدامة ... ورسائل الصابى وشعر كشاجم

ولكنه لبؤس حاله ونكد طالعه نشأ فى عصر أفعم بالفتن ، فسياسته مختلة ، ورياسته ممثلة ، والخلافة اسم ليس له مسمى ، ورسم لا حقيقة ، وملوك الديلم تتأرث بينهم الأحقاد ، وتحاك الدسائس وتفشو الفتن ، والرجل ذو المروءة لا يسلم روحيًّا وحسيًّا ، فإما النفاق فيسخر ضميره لكل حاكم ، ويكتب بكل قلم ، ويأكل على كل مائدة ، ويمنح عقله كل راغب ، ويعطى لسانه كل خاطب ؛ وإلا فالمحابس مفتحة ، والسلب والنهب أيسر عقاب . ولقد كان إبان شبابه قبل أن تستشرى الفتن ، ويتنزى الاضطراب وتتأصل فى النفوس السخائم ، يتسامى ويتصاعد ، وجده يتعالى ويتماجد ، حتى صار من العظماء الممدوحين لا من الأدباء المادحين ، فسعى إلى أبى الطيب المتنبى راغباً إليه أن يمدحه بقصيدتين ولا يمنعه رفده ، أو يقطع عنه سيبه بل يرفده بخمسة آلاف درهم ، فبعث إليه المتنبى قائلاً : « والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولا أوجب علىَّ فى هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت ، وإن أنا مدحتك تنكر لك الوزير (يقصد المهلبى) وتغير عليك لأننى لم أمدحه ، فإن كنت لا تبالى هذه الحال ، فأنا أجيبك إلى ما التمست ، وما أريد منك مالاً ، ولا عن شعرى عوضاً ؛ فتنبه إلى موضع خطئه ولم يعاوده بعدئذ . وإن دلنا ذلك الحديث الذى رويناه عن ياقوت على شىء فإنه يدل على سمو نفسه واعتزازه بقدره ، فمن أسمى من ممدوح المتنبى ؟ كما يدل على علو منزلته لدى أبى الطيب ، وعلى أن هذا كان شديد الإخلاص وفير الوفاء لصداقته ، فلو قد فعل دون تحذير أو تنبيه لبكرت عليه النكبات ، ولفقد ولياً طالما بذل له رفده ، ولعب على ضوء وده

وكان لذيوع اسمه بين الكتاب والشعراء موجدة إن نأى ومحبة إن دنا فى نفوس الملوك والوزراء ، وما أكثرهم فى ذلك العصر ، فهو إن أخلص لهذا عوتب ، وإن والى ذاك عوتب ، وإن لزم الحيدة أنب ، وإن أعلن عن رأيه أدب ، فهو ملوم فى كل حال ، مستحق العقوبة فى كل زمان ومكان ، فكان نزيل السجن مسلوب الوقر ، وهذا ما جناه على نفسه . فلو أنه أطاع أباه وانصرف إلى الطب لعاش سعيداً ومات سعيدا ، ولكنه تنكب الطريق السوي فكان من أمره ما سنفصله فى مقال تال

عبد العظيم على قناوى

يوميات نائب فى الارياف

للأستاذ أحمد الزين

أهدى الأستاذ توفيق الحكيم إلى الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين كتابه « يوميات نائب فى الأرياف » فأجابه الأستاذ الزين على هديته بهذه الأبيات :

إن يفخر العُرْبُ الكرام بكاتب ... فَلْيَفْخروا ببراع ذاك النائبِ
قلمٌ بتصوير السرائر مُولَع ... غَيْبُ النفوس عليه ليس بغائب
يَسرى إلى طى الصدور شعاعُه ... أمضى وأنفذ من شهابٍ ثاقب
يصف النفوس كما بَرَاها ربها ... ويميط عنها كلَّ ثوب كاذب
فكأنما يدعو النفوس فتلتقى ... فى الطرس سافرة سفور الكاعب
سحر البيان يبين كل خفية ... أين المصوِّر من يراع الكاتب
إيهٍ أديبَ الشرق هات روائعا ... قصصاً تُوَشِّيها بظرفٍ خالب
وأَفِض على اللغة الكريمة ثروةً ... فالعُرْبُ أشْكرُ أمة للواهب

أحمد الزين